رسائل تلّغرافيّة
(٦)

فِقْهُ التَّدَبُّرِ فِي الْقُرْآنِ

بَلَّغَهُ

ابن الكيال

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للَّه وحده، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيّ بعده ﷺ، **أما بعد:**

فهذه الرسالة السادسة من الرسائل التلغرافية، أردتُ فيها بيان التدبُّر والمراد منه؛ لأنه الأصل الذي يُبنىٰ عليه فهم الكتاب والسنة، ومن ثم فهم دين الإسلام، قال اللَّه تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

قال القرطبي أبو عبد اللَّه محمد بن أحمد الأنصاري في كتابه الجامع في التفسير، وهو أقوىٰ التفاسير علىٰ الإطلاق لشموله لمسائل الفقه وأصوله وأدلة الأحكام في آيات القرآن المُسمىٰ بـ«الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٠٠):

- **في معنى التدبُّر:**

فقال القرطبي: «ثم عاب اللَّه المنافقين بالإعراض عن التدبُّر في القرآن والتفكُّر فيه وفي معانيه.

تدبّرت الشيء: فكّرت في عاقبته، وفي الحديث: «**لا تدابروا**» [مسلم: (٢٥٦٣)]؛ أي: لا يولّي بعضكم بعضًا دبره، وأدبر القوم: مضىٰ أمرهم إلىٰ آخره، والتدبير: يُدَبِّر الإنسان أمره، كأنه ينظر إلىٰ ما تصير إليه عاقبته.

ودلّت هذه الآية وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾؟! [محمد: ٢٤] علىٰ وجوب التدبّر في القرآن ليعرف معناه.

فكان في هذا ردٌّ علىٰ فساد قول من قال: لا يؤخذ من تفسير القرآن إلا ما ثبت عن النبيّ ﷺ؛ ومنع أن يُتأوَّل علىٰ ما يسوغه لسان العرب [يعني: بما لا يخالف من اللغة الكتاب والسنة]، وفيه دليل علىٰ فساد الأمر بالنظر والاستدلال وإبطال

التقليد، وفيه دليل علىٰ إثبات القياس.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾؛ أي: تفاوتًا وتناقضًا؛ قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد.

ولا يدخل في هذا اختلاف ألفاظ القراءات وألفاظ الأمثال والدلالات ومقادير السور والآيات، وإنما اختلاف التناقض والتفاوت.

وقيل: والمعنىٰ لو كان ما تُخبرون به من عند غير اللَّه لاختلف.

وقيل: إنه ليس من متكلم يتكلم كلامًا كثيرًا إلا وجد في كلامه اختلاف كثير؛ إما في الوصف واللفظ، وإما في جودة اللفظ، وإما في التناقض، وإما في الكذب؛ فأنزل اللَّه عَجَلَّ القرآن وأمرهم بتدبّره؛ لأنهم لا يجدون فيه اختلافًا في وصف، ولا ردًّا له في معنىٰ، ولا تناقضًا، ولا كذبًا فيما يخبرون به من الغيوب وما يُسرّون». اهـ

قلت: ولذلك -واللَّه تعالىٰ أعلم- كانت الآية التي بعد هذه الآية قال اللَّه فيها: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [النساء: ٨٣]، والاستنباط: استخراج المعاني والمراد للَّه ورسوله من القرآن والسنة ومعرفة العلل وأسرار الآيات وفقهها.

وقال الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي في كتابه «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢٣٦) عند الآية الأولىٰ:

«يقول تعالىٰ آمرًا عباده بتدبر القرآن، وناهيًا لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهّم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، ومخبرًا لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تضاد ولا تعارض؛ لأنه تنزل من حكيم حميد، فهو حق من حق؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ﴾ ثم قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لو كان مفتعلًا مختلفًا كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم

﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ ؛ أي: اضطرابًا وتضادًّا كثيرًا ؛ أي: وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند اللَّه ؛ كما قال تعالىٰ مخبرًا عن الراسخين في العلم حيث قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧] ؛ أي: محكمهُ ومتشابههُ حق، فلهذا ردّوا المتشابه إلىٰ المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلىٰ المتشابه فغووا ؛ ولهذا مدح تعالىٰ الراسخين وذم المنافقين». اهـ

وكذلك قال القرطبي في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤] **قال (١٦/ ١٧٧):**

«أي: يتفهمونه فيعلمون ما أعدّ اللَّه للذين لم يتولّوا عن الإسلام ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ ؛ أي: بل علىٰ قلوب أقفلها اللَّه ﷻ عليهم فهم لا يعقلون؟!

فالإقفال هاهنا إشارة إلىٰ ارتياح القلب وخلّوه عن الإيمان ؛ أي: لا يدخل قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الفسق ؛ لأن اللَّه تعالىٰ طبع علىٰ قلوبهم.

وقال: «علىٰ قلوب» ؛ لأنه لو قال: علىٰ قلوبهم، لم يدخل قلب غيرهم في هذه الجملة، والمراد أم علىٰ قلوب هؤلاء وقلوب من كانوا بهذه الصفة أقفالها؟». اهـ

قلت: يعني هؤلاء هم الذين لم يتدبّروا القرآن فقفلت قلوبهم وماتت ولم يفقهوا ولم يفهموا، ونزع اللَّه من قلوبهم الفرقان وهو الفيصل الذي يميز ويفصل به بين الحق والباطل والهدىٰ والضلال والسنة والبدعة والغي والرشاد.

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩].

- **فإنه لا تدرك بركة القرآن إلا بحُسن التدبّر والفهم:**

وقال عبد الرحمن بن ناصر السعدي في تفسيره «تيسير الكريم الرحمن» (ص١٨٩-١٩٠):

«يأمر تعالىٰ بتدبُّر كتابه، وهو التأمل في معانيه وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه

وعواقبه، ولوازم ذلك؛ فإن تدبّر كتاب اللَّه مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يُستنْتج كل خير ويُستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب وترسخ شجرته؛ فإنه يعرف بالرب المعبود وما له من صفات الكمال، ويعرف الطريق الموصّلة إليه وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرف العدو الذي هو العدو علىٰ الحقيقة، والطريق الموصلة إلىٰ العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب.

وكلما ازداد العبد تأمّلًا فيه، ازداد علمًا وعملًا وبصيرة، لذلك أمر اللَّه بذلك، وحث عليه، وأخبر أنّه هو المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

● **ومن فوائد التدبّر لكتاب اللَّه:**

أنه بذلك يصل العبد إلىٰ درجة اليقين والعلم بأنه كلام اللَّه؛ لأنّه يراه يُصَدِّق بعضه بعضًا، ويوافق بعضه بعضًا، فترىٰ الحكم والقصة والإخبارات تُعاد في القرآن في عِدَّة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقص بعضها بعضًا؛ فبذلك يعلم كمال القرآن، وأنه من عند اللَّه من أحاط علمه بجميع الأمور». اهـ

قلت: أما قوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، **قال القرطبي في «جامعه» (١٥/ ١٤٢)**:

«في دليل علىٰ وجوب معرفة معاني القرآن، وفيه دليل علىٰ أن الترتيل أفضل من الهذّ [يعني: القراءة السريعة للقرآن] إذْ لا يصح التدبّر مع الهذّ.

وقال الحسن البصري: تدبّر آيات اللَّه: اتباعها». اهـ

وقال السعدي في «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٧١٢):

«قوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾ فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدىٰ من ضلاله، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم

يحتاج إليه المكلّفون، وفيه من الأدلّة علىٰ التدبّر في القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة علىٰ التدبّر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي: أولو العقول الصحيحة يتذكّرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب، فدل هذا علىٰ أنه بحسب لبّ الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب». اهـ

قلت: فإذا حدث الانتفاع بهذا الكتاب، حدث الفوز العظيم، ولا يكون ذلك إلا بالتدبّر.

قال شيخ المفسّرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في تفسيره: «جامع البيان في تأويل آي القرآن» (١٤/ ٥٨-٥٩):

«يقول تعالىٰ ذكره: أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ اللَّه التي يعظهم في آي القرآن الذي أنزله علىٰ نبيّه عليه الصلاة والسلام، ويتفكّرون في حُججه التي بيّنها لهم في تنزيله، فيعلموا به خطأ ما هم عليه مقيمون؟ ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾؟ [محمد: ٢٤] يقول: أم أقفل اللَّه علىٰ قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل اللَّه في كتابه من المواعظ والعبر؟!

وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

[٣١٤٧٢] حدثنا .... عن قتادة في قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ إذًا واللَّه يجدون في القرآن زاجرًا عن معصية اللَّه؛ لو تدبّره القوم فعقلوه، ولكنّهم أخذوا بالمتشابه فهلكوا عند ذلك.

[٣١٤٧٦] حدثنا ... عن خالد بن معدان قال: ما من الناس أحد إلا وله أربع أعين، عينان في وجهه لمعيشته، وعينان في قلبه لدينه وما وعد اللَّه في الغيب، وما من أحد إلَّا وله شيطان متبطّن فِقَار ظهره، عاطف عنقه علىٰ عنقه،

فاغِرٌ فاه إلىٰ ثمرة قلبه، فإذا أراد اللَّه بعبدٍ خيرًا أبصرت عيناه اللتان في قلبه ما وعد اللَّه من الغيب؛ فعمل به وهما غيب فعمل بالغيب، وإذا أراد بعبدٍ شرًّا تركه، ثم قرأ ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾؟! قال: ترك القلب علىٰ ما فيه». اهـ

• فصل في السَّماع الحق للقرآن الذي يستخرج التدبّر المطلوب:

قال المجتهد المطلق إمام العلماء في زمانه شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية الحرَّاني في كتابه «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ٨-١٥) من كتاب التفسير:

«أصل السماع الذي أمر اللَّه به: هو سماع ما جاء به الرسول ﷺ، سماع فقه وقبول.

ولهذا انقسم الناس فيه أربعة أصناف:

١- صنف مُعْرِض ممتنع عن سماعه.

٢- وصنف سمع الصوت ولم يفقه المعنىٰ.

٣- وصنف فقهه ولكنّه لم يقبله.

٤- والرابع: الذي سمعه سماع فقه وقبول.

• **فالأول**: كالذين قال فيهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

• **والصنف الثاني**: من سمع الصوت بذلك لكن لم يفقه المعنىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ﴾ [الأنعام: ٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥]، وقوله: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ يتناول من لم يفهم منه تفسير اللفظ كما يفهم بمجرد العربية، ومن فهم ذلك لكن لم يعلم نفس المراد وهو: الأعيان والأفعال والصفات المقصودة بالأمر والخبر؛ بحيث يراها

ولا يعلم أنها مدلول الخطاب، مثل من يعلم وصفًا مذمومًا ويكون هو متصفًا به أو بعضًا من جنسه ولا يعلم أنه داخل فيه.

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣]، قال ذلك بعد قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠-٢١]، فقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ لم يرد به مجرد إسماع الصوت لوجهين:

أحدهما: أن هذا السماع لا بد منه ولا تقوم حجة علىٰ المدعوين إلا به، كما قال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]، وقال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

والثاني: أنه وحده لا ينفع؛ فإنه قد حصل لجميع الذين استمعوا القرآن ولم يؤمنوا به، بخلاف إسماع الفقه، فإذن ذلك هو الذي يعطيه اللَّه لمن فيه خير، وهذا نظير ما في «الصحيحين» عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**من يرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين**» [البخاري (٧٣١٢)، ومسلم (١٠٣٧)]، وهذه الآية والحديث يدلّان علىٰ أن من لم يحصل له السماع الذي يفقه معه القول، فإنّ اللَّه لم يعلم فيه خيرًا ولم يرد به خيرًا، وإنّ من علم اللَّه فيه خيرًا أو أراد به خيرًا فلا بد أن يسمعه ويُفقهّه؛ إذْ الحديث قد بيّن أن كل من يرد اللَّه به خيرًا يفقّهه، فالأول مستلزم للثاني، والصيغة عامّة، فمن لم يفقهه لم يكن داخلًا في العموم، فلا يكون اللَّه أراد به خيرًا، وقد انتفىٰ في حقِّه اللازم فينتفي الملزوم.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ بيّن أنّ الأول شرط للثاني؛ شرطًا نحويًا، وهو ملزوم وسبب، فيقتضي أن كل من علم اللَّه فيه خيرًا أسمعه هذا الإسماع، فمن لم يُسمعه إياه لم يكن قد علم فه خيرًا، فتدبّر كيف

وَجَبَ هذا السماع وهذا الفقه، وهذا حال المؤمنين، بخلاف الذين يقولون بسماعٍ لا فقه معه، أو فقه لا سماع معه، أعني: هذا السماع.

أما قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، فهم بمنزلة اليهود الذين قالوا: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، وهم الصنف الثالث.

ودلت الآية علىٰ أنه ليس لكل من سمع وفقه يكون فيه خير، بل قد يفقه ولا يعمل بعلمه فلا ينتفع به، فلا يكون فيه خيرٌ.

ودلت الآية علىٰ أنَّ إسماع التفهيم إنما يطلب لمن فيه خير، فإنه هو الذي ينتفع به، فأما من ليس ينتفع به فلا يطلب تفهيمه.

• **الصنف الثالث**: من سمع الكلام وفقهه، لكنه لم يقبله ولم يطع أمره، كاليهود الذين قال اللَّه فيهم: ﴿أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥].

فهؤلاء من الصنف الأول الذين يسمعون ويقرؤون ولا يفقهون أو يعقلون، فأخبر اللَّه بذنوبهم التي استحقّوا بها ما استحقّوه، كما قال فيهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ [النساء: ١٥٥].

• والصنف الرابع: الذين سمعوا سماع فقه وقبول، فهذا هو السماع المأمور به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١-٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وكذلك قوله: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ [فصلت: ٤٤]، ومثله

قوله: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، فالبيان يعم كل من فقهه، والهدىٰ والموعظة للمتقين، وقوله: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، وقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢].

- **وهنا لطيفة تزيل إشكالًا يفهم هنا:**

وهو أنه ليس من شرط هذا المتقي المؤمن أن يكون كان من المتقين المؤمنين قبل سماع القرآن؛ فإن هذا أولًا ممتنع؛ إذ لا يكون مؤمنًا متقيًا من لم يسمع شيئًا من القرآن.

ثانيًا: أن الشرط إنما يجب أن يقارن المشروط، لا يجب أن يتقدمه تقدمًا زمانيًّا، كاستقبال القبلة في الصلاة.

وثالثًا: أن المقصود أن يُبَيِّن شيئين:

أحدهما: أن الانتفاع به بالاهتداء والاتعاظ هو -وإن كان موجبًا له- لكن لا بد مع الفاعل من القابل؛ إذْ الكلام لا يؤثّر فيمن لا يكون قابلًا له، وإن كان من شأنه أن يهدي ويعظ ويرحم، وهذا حال كل كلام.

الثاني: أن يُبيّن أن المهتدين بهذا هم المؤمنون المتقون، ويستدل بعدم الاهتداء به علىٰ عدم الإيمان والتقوىٰ، كما يقال: المتعلمون لكتاب بُقراط هم الأطباء، وإن لم يكونوا أطباء قبل علمه، بل بتعلّمه، وكما يقال: سيبويه كتاب عظيم المنفعة للنحاة، وإن كانوا إنما صاروا نحاة بتعلّمه». اهـ

فإذا كان ذلك كذلك، علم أنه لا يكون التدبّر لكتاب اللّٰه التدبر الحق إلا بالسماع الحق الذي هو الصنف الرابع من سمع سماع فقه وفهم ثم قبول ما فقه وفهم، فهذا هو السماع المأمور به المؤدي إلىٰ حسن التدبّر والعمل، كما مرّ في بيان التدبر ومعناه وسبب الانتفاع به وحصول بركته، وما يحدث من الفوائد من

التدبر، والأصل ما قاله اللَّه تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْۖ﴾ [الأنفال: ٢٣]، والخير التقوىٰ والإيمان وخلوص القلب للَّه، بهذا يتم السماع والتدبّر، مع الإنصات.

قال اللَّه تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

قال القرطبي في «جامعه» (٧/ ٢٥٢):

«والإنصات: السكوت للاستماع والإصغاء والمراعاة». اهـ

وقال ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٣٥٢):

«لما ذكر تعالىٰ أن القرآن بصائر للناس وهدىٰ ورحمة، أمر تعالىٰ بالإنصات عند تلاوته إعظامًا له واحترامًا». اهـ

وقال السعدي في «تفسيره» (ص٣١٤):

«هذاالأمر عام في كل من سمع كتاب اللَّه يتلىٰ، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات: أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه ويحضر قلبه ويتدبّر ما يستمع، فإن من لازم علىٰ هذين الأمرين حين يتلىٰ كتاب اللَّه، فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًّا متجددًا.

ولهذا رتب اللَّه حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك علىٰ أن من تلي عليه الكتاب فلم يستمع له وينصت، أنَّه محروم الحظ من الرحمة فقد فاته خير كثير». اهـ

قال القرطبي في «جامعه» (٧/ ٢٥٢):

«وقال الزجاج: يجوز أن يكون قوله: ﴿فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾: اعملوا بما فيه ولا تجاوزوه». اهـ

قلت: يريد أن التدبّر والسماع والإنصات إنما كان كذلك للعمل به، وهذا المراد الأسمىٰ والغاية الأعلىٰ من الكتاب والسنة والإجماع.

وفي هذا السياق يجدر بنا ذكر فائدة جليلة بدأ بها الإمام ابن القيم أول كتاب «الفوائد» (ص٥-٧) في كلام شامل جامع عليه مدار هذه الرسالة، وأختمها بها، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«إذ أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعك واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطابٌ منه لك علىٰ لسان رسوله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]، وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفًا علىٰ مؤثر مقتضٍ، ومحل قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدلّه علىٰ المراد؛ فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾: إشارة إلىٰ ما تقدم من أول سورة «ق» إلىٰ هنا، وهذا هو المؤثر [يعني: قراءة السورة كلها إلىٰ هذا الموضع]، وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾: فهذا هو المحل القابل، والمراد به القلب الحيّ الذي يعقل عن اللّه مراده، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩-٧٠]؛ أي: حيّ القلب، وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾: أي: وجَّه سمعه وأصغىٰ حاسّة سمعه إلىٰ ما يقال له، وهذا شرط التأثير بالكلام، وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾: أي: شاهد القلب حاضر غير غائب. قال ابن قتيبة: «استمع كتاب اللّه وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل ولا ساهٍ»، وهو إشارة إلىٰ المانع من حصول التأثير، وهو: سهو القلب وغيبته عن تعقّل ما يقال له، والنظر فيه وتأمّله، فإذا حصل المؤثّر وهو القرآن، والمحل القابل وهو القلب الحيّ، وَوُجِد الشرط وهو الإصغاء، وانتفىٰ المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنىٰ الخطاب وانصرافه عنه إلىٰ شيء آخر، حصل الأثر وهو الانتفاع بالذكر. . . .

وهذا وصف الذين قيل فيهم: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]، وقال في حقهم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النور: ٣٥]، فهذا نور الفطرة علىٰ نور الوحي، وهذا حال صاحب القلب الحي الواعي....

فصاحب القلب يجمع بين قلبه وبين معاني القرآن، فيجدها كأنَّها قد كتبت فيه، فهو يقرؤها عن ظهر قلب، ومن الناس من لا يكون تام الاستعداد، واعيَ القلب، كامل الحياة، فيحتاج إلىٰ شاهد يميّز له بين الحق والباطل، ولم تبلغ حياةُ قلبه ونوره، وزكاءُ فطرته، مبلغ صاحب القلب الحي الواعي.

فطريق هدايته: أن يُفْرِغ سمعه للكلام، وقلبه لتأمله والتفكّر فيه، وتعقّل معانيه، فيعلم حينئذٍ أنه الحق، فالأول حال من رأىٰ بعينه ما دُعِيَ إليه وأُخبر به، والثاني حال من علم صدق المخْبِر وتيقّنه وقال: يكفيني خبره فهو في مقام الإيمان». اهـ

قلت: فإذا ضممت خاتمة ابن القيّم إلىٰ ما فصّلته لك، اكتمل البيان بإذن اللَّه، واللَّه يقول الحق وهو يهدي السبيل، والحمد للَّه أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وصلىٰ اللَّه وسلم علىٰ نبيّنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

بلّغه

الفقير إلى ربِّه

ابن الكيَّال